

أعماق محاكمة سقراط

محمد ممدوح علي عبد المجيد
باحث مصري



قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

الملخص التنفيذي:

اختلف النظار من أهل الفكر والتاريخ من حدث إعدام سقراط ودلالاته وأبعاد محاكمته، وقد تجشمت هذه الدراسة عناء معاودة النظر فيها وفي منزلتها وانعكاساتها على تاريخ الفكر والإنسانية جمعاء. وقد انطلقت الدراسة من أمر أساس، هو الجمع بين النظر القانوني وكيفية نصب الأدلة والإعداد لمحاكمة سقراط وبين النظر الفلسفي الكاشف لمغزى الامتثال للقانون والعدالة. ومن هنا، لم يكن مرد حدث إعدام سقراط إلى السياسة فحسب، بل إن الفلسفة هي التي أعدمته لأنه رغب في الحق.

لم يتردد الباحث في هذا السياق في بيان فساد الدعاوى منطقيًا وشكليًا، ويعود الأمر إلى جرأة سقراط في إحراج الأقوياء والحكام والتنبيه إلى فراغهم معرفيًا، ويقر الباحث بأن إعدام سقراط أسهم، لا في محوه ودفنه، بل في صناعة دولة أثينا القوية فكريًا وفلسفيًا.

تمهيد:

تناول عديد من الباحثين الشكل الخارجي لمحاكمة سقراط، أقصد الاتهامات وردود سقراط عليها، دون النظر إلى ما وراء الكلمات من معانٍ عميقة ومبادئ عظيمة وقيم ضحى لأجلها سقراط. وكل شئ في سقراط يدل عليه، شخصيته المعنوية والأخلاقية تُنبئ عن حياته العملية، وحياته العملية تُنبئ عن شخصيته الحقيقية وسماته الشخصية تجعلنا من أشد الموقنين بأن سقراط الفيلسوف لم يكن لينفصل عن سقراط الإنسان، وأن حياته النظرية لم تكن لتنفصل عن حياته العملية. فقد كان سقراط سفيراً فوق العادة، لم يكن من متلوني الوجوه الذين يصفقون لكل صاحب كرسي،⁽¹⁾ ولم يكن من الباحثين عن المجد والشهرة، ولم يكن من طالبي المال، ولم يكن من أولئك الذين يدورون في فلك مصالحهم وجوداً وعدمًا.

في كل كلمة ينطقها سقراط في المحاكمة تجد خلفها سقراط الحقيقي، سقراط الذي يرفض تنميق الكلام لأنه ما اهتم أبداً بالعرض دون الجوهر، فقد كان بالي الثياب يمشى منتعلاً الأرض في الصيف والشتاء على السواء دون أن يبالي بشكله أو مظهره.⁽²⁾ ولم يكن سقراط، الذي جهر بالحق الصريح في وجه القضاة الذين يمتلكون مصيره في ثنايا كلماتهم، سوى صادقاً بالحق في وجوه أصحاب السلطة. لقد رفض الهرب من السجن اتساقاً مع المبادئ العامة والخطوط العريضة لفلسفته.

ترجع أهمية هذا البحث إلى محاولته إبراز الجوانب المستترة في محاكمة سقراط وتسليط الضوء عليها، ولأجل التأكيد على مبدأ أراني متمسكاً به، وهو "لم يكن يجدر بسقراط أن يفعل غير ما فعل ولم يكن يجدر بقضاة الديمقراطية أن يفعلوا غير ما فعلوا، فكل ميسر لما خلق له وفاقد الشيء لا يعطيه." ويحاول هذا البحث الإجابة على عدة إشكاليات تتعلق بتلك المحاكمة الفريدة في تاريخ الفلسفة من قبيل:

1- لماذا اقتيد سقراط إلى السجن؟ ولماذا قُدم للمحاكمة؟

2- هل يدفع سقراط حياته ثمناً لتعليم الفلسفة؟

3- هل تصلح عريضة الدعوى منطقيًا للحكم بالإعدام؟

4- هل أعدم سقراط نفسه؟

¹ - MC tic he (K): - „Socrates on desire for the good and the involuntariness of wrong doing, an essay on the philosophy of Socrates, ed by: H.H.benson & oxford university press network, I929, p. 123

² - Ibid, p. 123

يحاول الباحث الإجابة على تلك الأسئلة من خلال عرضه لمقدمات المحاكمة، ثم إثبات فساد الاتهامات منطقيًا، ثم العرض لسقراط بين أخذ المحكمة والرد عليها، ثم المصير المنتظر لسقراط ولأثينا. وتلك هي أهم الأطر اللازمة لأبعاد تلك المحاكمة.

أما المنهج المستخدم، فهو المنهج التحليلي التاريخي المقارن، نظرًا لأنه يتناسب مع طبيعة هذه الدراسة.

أولاً: مقدمات المحاكمة

لعل السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا سيق سقراط إلى المحاكمة؟ والسؤال في ظاهره يبدو منطقيًا ولكن بعد التدقيق في معطياته لا تبدو فيه منطقية، لأنه يوجه الإجابة في اتجاه واحد، اتجاه المحاكمة في شكلها المعتاد التي تصور مذنب أو مجرم يقف أمام العدالة لتقتص منه، وتصور المتهم على أنه رجل صاحب قضية فساد سياسي شهيرة يقف خلف القضبان ويخضع لابتزاز الجماهير وتأييب القضاة.⁽³⁾ وهذا أبعد ما يكون عن الصواب، بل سقراط على العكس تمامًا، لقد صدح بالصواعق المدوية في وجه القضاة دون أن يستطيع أحدهم أن يوجه إليه أدنى إدانة، بل إنه تتبع الأدلة المنطقية في التدليل على براءته دون أن يكون لأي من القضاة رأى أو تعقيب.

لقد اتهم سقراط بالفلسفة وهي التهمة الكفيلة بالإعدام أو النفي مدى الحياة، يقول ستون: "التفلسف هو التهمة التي لا يألو فيها الخصم جهدًا لاتهام خصمه بها، مما يجعله منتصرًا دائمًا، حتى لو كانت الدعوى في صميمها باطلة."⁽⁴⁾ وسقراط هو أحد شهداء تلك الفلسفة، إذ إن الأثينيين لا يحفلون بالرجل إذا ظنت فيه الحكمة، أما إذا أخذ يبث في الناس حكمته فإنهم عندئذ يبحثون عن سبب لغضبهم عليه، ولعل هذه العبارة تصدق على كل قوم وكل بلد، فالناس متسامحون ما دمت تقصر علمك على نفسك، أما إذا علّمتهم إياه وكان مخالفًا لما درجوا عليه من علم فإنهم لا يدخرون وسعًا في المعارضة.⁽⁵⁾

ولعل هذا هو السبب عينه الذي ترك عميق الأثر في أفلاطون عندما ندب حظ الفلسفة قائلاً: "وهكذا تُترك فتاة تخلق عنها أقرب الناس إليها، وعلى حين يحيا أنصارها حياة زائفة لا تليق بهم، فإن حرمان الفلسفة من أهلها القادرين على حمايتها يشجع الدخلاء على اقتحام دارها وتلطّيح شرفها فينسبون إليها تلك العيوب التي

³- Vlastos (G)"- Socrates (Ironic and moral philosopher), Cambridge university press & new York , 1992, P. 3

⁴- stone (I.F):- the trial of socrate, U,S,A. 1993, P. 126

⁵- أفلاطون، محاوره اقريطون، تر: زكي نجيب محمود، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1966، ص 22

ذكرتها وهي أن أهلها منهم من لا يصلح لشيء والباقون وهم الأكثر يستحقون أشد العقاب.⁽⁶⁾ هذا قدر الفلسفة وهذا شأن أصحابها إلى قيام الساعة، ولو أراد الله الهداية للبشر لمكن للفلاسفة،⁽⁷⁾ لكن هذا دومًا قدرهم وهذه الشرور اللامتناهية عليهم وحدهم تحمل تبعاتها، والعمل على الوصول إلى شاطئ الأمان ببني البشر هو دائمًا مهمتهم.

لقد أثار سقراط عديدًا من المتاعب في أثينا، فلم ينفك عن الاعتقاد بحرية البحث، وربما يرجع ذلك في أحد أوجهه إلى جو الديمقراطية في أثينا، وإلى شخصية سقراط وطبيعته.⁽⁸⁾ فقد حاول سقراط الوصول إلى المعاني الحقيقية للأشياء، فامتحن أصحاب الحكمة أو أولئك الذين يدعون أنهم أهل حكمة، فكانت المفاجأة أنه وجد جهلاً يلبس ثياب الحكمة، إذ يقول: "فواجبي أن أقول الحق، أنني قد انتهيت من البحث إلى ما رويت، إذ وجدت أن أشهر الناس أكثرهم غباءً، وقد صادفت فيمن هم دون هؤلاء مقامًا رجالاً بلغوا ما لم يبلغه هؤلاء."⁽⁹⁾ بهذه الطريقة سار سقراط يمتحن الأدياء،⁽¹⁰⁾ وبأسلوبه الخاص التف حوله عدد من الشباب الأثرياء ليشهدوا امتحان الأدياء، لكنهم سرعان ما أعجبوا بطريقته، فحاولوا تقليده، يقول سقراط: "أما أن الشبان الأثرياء الذين لا تُضنيهم شواغل الحياة كثيرًا قد التفوا حولي، فهم قد جاءوا يسعون من تلقاء أنفسهم ليشهدوا امتحان الأدياء، وكثيرًا ما انطلقوا بدورهم يلتمسون أدياء الحكمة ليُجروا عليهم التجربة نفسها، وما أكثر ما صادفوا رجالاً ظنوا في أنفسهم العلم، فإذا بهم لا يعلمون إلا قليلاً، أو هم لا يعلمون شيئًا، فلا يلبث هؤلاء الذين امتحنهم الشبان أن يصبوا علىّ جم غضبهم."⁽¹¹⁾ لقد كان سقراط مخلصًا في أداء الأمانة التي وكله الإله بها، وهو يعلم أن امتحانه هذا سيورثه الحقد والكره في قلوب جهلاء الديمقراطية، لكن لا بد من إجلال كلمة الله المكان الأسمى.

تلك هي الحقيقة التي تكمن وراء محاكمة سقراط، إذ إن الفلسفة هي التي أدمت سقراط وليست السياسة، وليس أي شيء آخر غير أنه أراد إحقاق الحق في زمن لا يقبل بغير الباطل، أراد إرساء المعاني الحقيقية للأشياء في زمن لا يعترف بغير تزييف الأمور وأنصاف الحلول وهي القضايا التي تثبتتها الدعوى القضائية.

⁶- أفلاطون، محاوره الجمهورية، تر: فؤاد ذكريا الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، فقره 495، ص 408

⁷- MC tiche, op. cit, p. 9

⁸- stone, op. cit, p. 9

⁹- أفلاطون، محاوره الدفاع، تر: زكي نجيب محمود، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1996، ص 89

¹⁰- أبو ريان (محمد على)، تاريخ الفكر الفلسفي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط5، 1973، ج1، طاليس إلى أفلاطون، ص 129

¹¹- أفلاطون، محاوره الدفاع، ص 72

ثانياً: الدعوى القضائية بين الشكل والمضمون:

إن نص الدعوى المقامة ضد سقراط مكونة من ثلاث اتهامات؛ أما الاتهام الأول فإنه فاعل للرديلة، والثاني أنه مفسد للشباب، والثالث أنه كافر بألهة الدولة، وله معبودات خاصة اصطنعها لنفسه.⁽¹²⁾ وقد كان، قبل هذه الدعوى بسنوات، اتهمه ارستوفانيس بسخريته المعهودة بأنه حكيم يسبح بفكره في السماء ويهتم بدراسة الطبيعة.⁽¹³⁾

وإذا ما نظرنا بدقة إلى هذه الاتهامات وحاولنا تفنيدها، ليس على الطريقة السقراطية المليئة بالسخرية ولكن على الطريقة المنطقية البحتة، لما وجدنا أدنى صعوبة في إثبات فسادها منطقيًا، وإلا فماذا يعنى أن سقراط فاعل للرديلة، لو كان المقصود هو اللواط فإن الشعب الأثيني آنذاك كان يجاهر بهذا الفعل دون أدنى غضاضة.⁽¹⁴⁾ فلم يكن هذا هو المقصود أبدًا، ولكن المقصود بكلمة فاعل للرديلة هو أن سقراط قد اعتاد امتحان المشاهير وإثبات جهلهم على الملأ، فكان هذا الفعل بمثابة الرديلة التي يفعلها سقراط.⁽¹⁵⁾

أما تهمة إفساد الشباب، فهو ذاته يرد عليها ردًا منطقيًا، ردًا يخاطب العقل من أقصر الطرق، فها هم الشباب الذين هم بحسب الدعوى ضحايا يقفون إلى جوار أستاذهم، وها هم أهاليهم وذويهم، فليتحدثوا ليسمع لهم القضاء، هل سيتكلف القضاء شيئًا إذا طلبوا شهادة أولئك التلاميذ أو أولياء أمورهم، إنه لرد كفيل بأن يأتي بالبراءة مطهّرة من كل شائبة، يقول سقراط: "ولو كنت أفسد الشباب حقًا وكنت أفسدت بعضهم فعلاً لوجب أن يتصدى منهم للانتقام أولئك الذين تقدمت بهم السن فأدركوا ما نفتت لهم من سوء نصحي، فإن لم يفعلوا ذلك بأنفسهم وجب أن ينهض ذوو أقاربهم أو أبائهم أو إخوانهم أو من هؤلاء فيقتضيني ما أنزلت بأبنائهم من سوء."⁽¹⁶⁾

¹²- المصدر نفسه، ص 81

¹³- Zeller (E): -outline of the history of greek philosophy, trans by: - L.R.plamet, i3 ed, pover publications inc, New York, 1980, p. 103

¹⁴- Wiggins (D):_ the philosophy of greek, princeton Unversity press, new tersey, 1959, p. 97

¹⁵- Vlastos, op. cit, p. 18

¹⁶- أفلاطون، محاوره الدفاع، ص 97

ولكن الواقع يخيب ظن الواهين ويقلل من شأن الشاكين، ويقف بكل ما أوتي من قوة ليثبت للعدالة موقف سقراط، وليبرهن على أن تلك الدعاوى ما هي إلا صورة انتقامية تدفعها أمور مستترة لا يجرؤ المدعون على أن يكشفوا النقاب عنها.⁽¹⁷⁾

أما تهمة الإلحاد فنصيبها من الصحة ليس أكثر من نصيب سابقتها، فإذا كانت تلك التهمة حقيقية لكان أولى بها غيره ممن أنكروا وجود آلهة أساساً، لقد أهد كثير من رجال الحركة السوفسطائية مثل بروديقوس وأنطيفون وبروتاجوراس، ومع ذلك لم يقدموا إلى المحاكمات كما قدم سقراط، هذا فضلاً عن أن سقراط لم يكن ينكر وجود الآلهة مطلقاً، بل كان صاحب إيمان عميق بوجودها، كما بيّن في دفاعه إيمانه بآلهة الشمس والقمر، وهي العقيدة السائدة بين اليونانيين، إذ تجده في آخر كلامه يقول لأصدقائه: "ومع ذلك فيحق لي بل يجب علي أن أصلي للآلهة أن توقفي في رحلتي من هذا العالم إلى العالم الآخر، فلعل الآلهة تهبني هذا فهو صلاتي لها."⁽¹⁸⁾

إن الطابع الديني الذي صورت به محاكمة سقراط لا يمكن رده إلا إلى اتجاهات سياسية، فتهمة الكفر والإلحاد كما بينا لم تكن تنتهي بالإعدام، لكن المشكلة الرئيسية في ذلك هي أن سقراط لم يشارك في إقامة الشعائر الدينية التي فرضتها الديمقراطية، لأن ما يعني الديمقراطية هو انصياع الجميع لحكمها، وبالتالي كان لأبد لسقراط من المشاركة، لأن عدم المشاركة عُد في النهاية خيانة للديمقراطية تستوجب الإعدام، أما الإلحاد في حد ذاته فلم يكن يعنيه في شيء، وكذلك العقيدة ذاتها، وهذا يثبت جهلها وعدم صلاحيتها للحكم، وصدق تعاليم سقراط بأن الحكم للعقل والحكمة، وليس للغوغاء والجهلاء.

ونستطيع القول، على أي حال، إن رفض سقراط لإقامة الشعائر الدينية التي فرضتها الديمقراطية لم يكن كفرًا بالآلهة كما ادعت ذلك الديمقراطية، إنما كانت رفضاً قاطعاً منه في أية مشاركة، ولو بنصيب قليل، في ظل حكومة لا تُقدر الفرق بين العلماء والجهلاء، بل لا تقيم وزناً يُذكر للعدالة، وكيف يكون للعدالة وجود، والحكام هم حشد من التجار والنوبختيه والصناع الذين لا يعلمون عن علم السياسة قليلاً أو كثيراً.

إن الصورة التي صورت بها محاكمته سقراط لم يكن لها أدنى نصيب من الصحة، إذ يقول ستون: "لو أن التهمة الحقيقية لسقراط هي إفساد الشباب بعلم مزيف، لكان السوفسطائيون هم الأولى بها منه، ولو كانت التهمة هي الإلحاد، لكان أولى بها غيره ممن أنكروا وجود آلهة أساساً، ولو أن أثينا كان عندها من العقل والرؤية وبعدها

¹⁷- Wiggins, op. cit, p. 122

¹⁸- أفلاطون، محاوره فيدون، تر: عزت قرني، القاهرة، مكتبة الحرية الحديثة، 1976، ص 277

النظر أدنى نصيب لنصبت من سقراط حاكمًا لها لأنه يستطيع أن ينهض بها نهضة عقلية وعلمية لا مثيل لها، ولكن على أية حال إذا كان سقراط قد فاته أن ينهض بأثينا نهضة عقلية فعلية فإن روح سقراط لم يفتها هذا الدور، إذ أشعل نيران المعرفة ولهيب العلم والفكر في رؤوس الأثينيين.⁽¹⁹⁾

وإذا عدنا قليلاً إلى الوراء نرى الاتهام القديم الذي ساقه أرسطوفانيس بأن سقراط ينشغل بالطبيعة وأنه "حكيم يسبح بفكره في السماء ثم يهوي به إلى الأرض، وأنه يخلع على الباطل رداء الحق..."⁽²⁰⁾ وبإعمال العقل نوجه إلى أنفسنا السؤال التالي: من الذي غير مسار الفلسفة من البحث في الطبيعة إلى البحث في الإنسان؟ ألم يكن سقراط؟ فكيف يُتهم سقراط بتهمة هو أصلاً ضدها؟ ويفند سقراط أيضاً تلك التهمة بقوله "أيها الأثينيون الحق الصراح أي لا أتصل بتلك الدراسات الطبيعية بسبب من الأسباب ويشهد بصدق ما أقول كثير من الحضور."⁽²¹⁾

بل إنه عدّ هذه الدراسات الطبيعية ضرباً من الكفر والإلحاد، ووصفها بالجنون قائلاً: "وكما يختلف المجانين فمنهم من لا يخاف مما يخيف ومنهم من لا يستحي من التلطف أو عمل أي شيء أمام الناس، ومنهم من لا يحترم المعبد ولا الهيكل، ومن لا يهدي أي شيء إلى الآلهة، ومن يعبد الحجارة والحيوان، كذلك نجد أولئك الذين يبحثون في الطبيعة بعضهم يعتقد أن كل الأشياء في صيرورة دائمة، وبعضهم الآخر يلغي الحركة، وبعضهم يرى أن كل الموجودات قد حدثت وستفنى، وبعضهم يرى ألا وجود ولا فناء."⁽²²⁾ فلا يوجد أدنى سند عقلي أو برجماتي لمقيمي تلك الدعوى، بل إنها فضحت جهلهم في عدم قدرتهم على صياغة دعوى يقبلها العقل ولا يكون لها نصيب من الصحة.

وإذا ما فسدت تلك الدعوى منطقياً، وإذا ما سقطت الاتهامات شكلياً، فما الدوافع الحقيقية لتلك الدعوى، والتي لعلها تكون شخصية من الوجه القريب وسياسية من الوجه البعيد؟ لعل أهمها:

¹⁹- Stone, op. cit, p. 212

²⁰- أفلاطون، محاوره الدفاع، ص 72

²¹- نفسه، ص 74

²²- Xenophon:-Memorabilia of Socrates trans by:- R.J.S. Watson& in socrate, discourses. J.M.Dent of sonltd London , 1951, p. 93

1. جرأة سقراط وشجاعته في إحراج الأقوياء ومدّعي الحكمة في أثينا، وربما كان هذا هو السبب الرئيسي لقيام تلك الدعوى ضده، ذلك أنه ربما يكون قد امتحن سقراط أو تلاميذه هؤلاء الثلاثة المقيمين للدعوى وأفحموهم أمام الناس، فتكون العدوات شخصية.⁽²³⁾
2. كراهيته للديمقراطية الأثينية وما كانت تقوم عليه من مساواة مسرفة وانتخاب بالقرعة وإسناد الحكم إلى الجهلاء، وقد كان سقراط يؤمن بحكم العلم والحكمة.
3. الخلط بينه وبين السوفسطائيين في مسرحية السحب لأرستوفانيس واعتباره واحدًا منهم، وهذا السبب يُعد أرستوفانيس المسؤول الأول عنه.⁽²⁴⁾
4. حمل سقراط على رموز الديمقراطية دون اعتبار لمراكزهم السياسية وتهكم بهم أمام العامة، لذا وقف الجميع ضده، "وحقيقة الأمر أيها القضاة هي أنكم تقفون مني هذا الموقف العدائي لأنني قد كشفت للملأ ادعاءكم المعرفة، كما أنني قد خلعت النقاب عن جهلكم المستور، وإنني لم أفعل ذلك لكي أحط من قدركم، بل لأرفع من هذا القدر وأرشدكم إلى حكمة أعظم". وتلك هي أهم الأسباب التي ربما تكون قد قادت سقراط إلى المحاكمة.

ثالثًا: سقراط أعدم نفسه:

لعل السؤال الذي شغل أذهان المهتمين بسقراط على مدار التاريخ كان متمثلًا في تلك الصياغة، هل أعدم سقراط نفسه؟ أو هل شارك هو بنفسه في صناعة حكم الإعدام؟ هناك من اعتبر موته بهذه الطريقة انتحارًا منه لا حكمًا عليه بالإعدام؟ فهل يمكننا القول مع نيتشه بأن سقراط أثناء المحاكمة كان مهرجًا، أو أن نقول "كان سقراط يريد أن يموت، لم تكن أثينا هي التي أعطته الشوكران، وإنما هو الذي أعطاه لنفسه، لقد أجبر أثينا على إعطائه الشوكران." ⁽²⁵⁾ حاولت كل هذه أطروحات تقديم إجابات منطقية لموت سقراط.

وإذا ما أخذنا هذه الاعتبارات جميعها على محمل الجد، فإن الاعتبار الأول، وهو أن سقراط قد ساهم ولو بنصيب ضئيل في قتل نفسه، أو إعدام نفسه، له نصيب كبير من الصحة من بعض الوجوه على النحو التالي:

²³- Laertius (D): Lives of Eminent Philosophers, trans. By: R.D Hicks, Vol II, The Loeb Classical Library William Heinmann., LTD, London, 1980, p. 206

²⁴- zeller, op. cit, p. 103

²⁵- وولف (فرنسيس)، سقراط، تر: منصور القاضي، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، 1993، ص 87

1- عدم اهتمام سقراط بالدفاع عن نفسه: إذ لم يهتم سقراط بالمحاكمة ولم يلجأ إلى محام متخصص ليدافع عنه، ولم يهتم هو ذاته بحديثه بحيث يرتبه وينمقه، يقول وولف: "لقد رفض سقراط تحضير دفاعه أو إعداده من قبل محام محترف، فسقراط حذر من المكتوب إلى أقصى حد، إذ لجأ إلى الكلام غير أنه بدلاً من استخدام القوة المقنعة للمرافعات المقننة التي تعود عليها الجمهور والتي بإمكانها سهولة كسب عطف القضاة، تشبث بنهجه في الامتحان الأخلاقي وتهكم على الاتهام، وبالاختصار كرر الجرم وأكثر من ذلك استخف بالشكوى الخطيرة وهزأ بالمتهمين وهم أقوىاء حتى إنه ادّعى إعطاء دروس في الأخلاق والمواطنة لهيئة المحلفين، وهي صاحبة الأمر والنهي."⁽²⁶⁾

ناهيك عن تلك السخرية اللاذعة التي استخدمها سقراط في أسلوبه وأخرج بها القضاة والمدّعون على حد سواء، إنه لا يزال متمسكاً بأسلوبه حتى عند انقضاء أجله، لا تزال سخريته مستمرة من كل شيء حتى النهاية، لقد سخر من الموت، حتى الموت.⁽²⁷⁾ فماذا يجدر بقاضي يقول له متهم واقف خلف القضبان مؤنباً له: "فابتسموا إذن للموت أيها القضاة، واعلموا علم اليقين أنه يستحيل على الرجل الصالح أن يُصاب بسوء لا في حياته ولا بعد مماته فلن تهمله الآلهة."⁽²⁸⁾ ألا تثير تلك الكلمات غضب القضاة، أليست تلك كلمات سخرية من الحكم ومن الحكام، ثم كيف يُصوت الحاضرون لبراءته وهو يكيل التوبيخ والتقريع قائلاً: "أيها الأثينيون لن تفتيدوا بقتلي إلا أمداً قصيراً وستدفعون له ثمناً ما تنطلق به أسنة السوء تذيع عن المدينة العار، ستقول عنكم أنكم قتلتم سقراط الحكيم، فسيذعنوني وقتنذ بالحكيم، وإن لم أكن حكيماً تقريعاً لكم."⁽²⁹⁾

أليست تلك السخرية مثيره للقضاة وللحضور على السواء، إذ تظهر سقراط مداناً بعض الشيء، قد يبدو مقصراً حيث لا ينفع تقصير، ومهرجاً حيث لا ينفع تهريج، وساخرًا حيث لا تُجدي سخرية.

2- الحكم والمبدأ: إذا نظرنا إلى القواعد الأصولية التي أقرتها الشرائع السماوية والفلسفية على حد سواء فإن الرخصة تفتح أذرعها لكل من ظلم من يتصل من اتهامه بالباطل ولو بلسانه، دون أدنى شك في يقين قلبه، فهل أخذ سقراط بتلك القاعدة؟ وهل ركب مركب الباحثين عن النجاة؟

لقد طلبت هيئة المحكمة طلبت من سقراط اقتراح عقوبة، فهو الذي يقترح ما يراه مناسباً. ولكن المنطق يقول إنه لو اقترح أدنى عقوبة فإن ذلك يُعد إقراراً منه بذنب لا وجود له أساساً، وإذا ما فعل ذلك يكون قد هدم

²⁶- نفسه، ص ص 85- 86

²⁷- Stone, op.cit, p. 217

²⁸- أفلاطون، محاوراة الدفاع، ص 108

²⁹- نفسه، ص 104

بنيانان قويان، الأول بنيان فلسفته التي لا تقبل بأنصاف الحلول، والثاني بنيان شخصيته التي مارست الصعاب وانتعلت الأشواك دون أن يؤثر ذلك على شخصيته أو فكره. فلو كان قبل عقوبة النفي أو أي عقوبة أخرى لما كان لدفاعه أدنى قيمة منطقية، لأنه بقبوله للعقوبة يكون قد هدم المعبد على فلسفته أبد الدهر، ولكنه واتساقاً مع رؤيته الشمولية رفض النفي أو أي عقوبة أخرى فيقول: "وإن قلت النفي وجب أن يكون حب الحياة قد أعمى بصيرتي، لأنكم وأنتم بني وطني لا تطيقون رؤيتي ولا تسيغون كلامي لأنه في رأيكم خطر ذميم، فوددت لو نجوت من شري عسى أن يطيقه سواكم، فما حياتي في هذه السن ضارباً من مدينة إلى أخرى مشرداً ابداً، طريداً دائماً، يلفظني البلد في أثر البلد، فما أرتاب في التفاف الشباب حولي أينما حللت كما فعلوا هنا، فلو رفضتم رغبتهم إلى أوليائهم في طردي فاستجابوا لرجائهم ولو تركتهم يسعون إلى طردي أبائهم وأصدقائهم صونا لأنفسهم."⁽³⁰⁾ ثم إذا قبل سقراط أي حكم ألا يُعد ذلك هدمًا للعقل أينما حل أو ارتحل؟ ألا يضم ذلك التنازل الذي يقدمه سقراط للفلسفة بالعار على مدار التاريخ؟⁽³¹⁾ وهذه قضية أخرى تعمق الرؤية المجيدة لسقراط إذ إنه لم يكتفِ برفض اقتراح عقوبة فقط بل رفض إطلاق سراحه شريطة الكف عن تعليم الفلسفة لأن ذلك يُعد بمثابة التنازل عن المبدأ ذاته والخط من قيمة الغاية.⁽³²⁾

يقول سقراط: "ولو قلت لي يا سقراط إننا سنطلق سراحك هذه المرة، ولن نأبه لأنيتس على شرط واحد وذلك أن تكف عن البحث والتفكير فلا تعود إليهما مرة أخرى ولو شاهدناك تفعل ذلك أنزلنا بك الموت، إن كان هذا شرط إخلاء سبيلي أجبت بقولي أيها الأثينيون انا أحبكم وأمجدكم ولكن لا بد أن أطيع الله أكثر مما أطيعكم فلن أمسك عن اتخاذ الفلسفة وتعليمها ما دمت حياً قوياً."⁽³³⁾

لقد رفض سقراط أي حكم مقابل الثبات على المبدأ، بل إنه رفض حتى البراءة الكاملة إذا ما اقترنت بالتخلي عن المبدأ، يقول ألبير: "رفض سقراط كل ما اتسم بالنسبية في مقابل المطلق، فالحياة عنده نسبية، ولكن العقل مطلق، فلم يقبل بالإبقاء على نسبي والقضاء على مطلق، وذاك فقط هو ما صنع اسم سقراط."⁽³⁴⁾ لقد كان الحكم بالإعدام على سقراط اختياراً، لا إجباراً، هيئة جاهلة تقترحه، وجماهير غفيرة تؤيده، وسقراط بمبدئه يباركه. فهو يتحمل منطقياً نصيباً ولو ضئيلاً من تلك الملهاة العبثية في تاريخ القضاء الأثيني، وهو يتحمل

³⁰ - نفسه، ص 103

³¹ - Stone, op. cit, p. 217

³² - Ibid, p. 218

³³ - أفلاطون، محاوراة الدفاع، ص 12

³⁴ - Al biere(b.H): - the end of Socrate, Methuen Co. Lid.london ,1981, p. 172

جزءًا من قتل العقل، لأنه بقصد أو بدون قصد شارك في صناعة مبدأ يقول: "العقل سلعة غالية والناس لا تبحث سوى عن الرخيص." (35)

فالسؤال الأول هل أعدم سقراط نفسه؟ على جانب كبير من الصحة، إذ إنه شارك في صنع هذا الاغتيال للفلسفة. أما السؤال الآخر، وهو: هل يُعد موته انتحارًا؟ فلا أظنه يمتلك من الصواب قليلاً أو كثيرًا، إذ إن الانتحار يقتضي عزلة الناس، وتاليًا يكون نتيجة لقسوة المعيشة أو لسوء التوافق النفسي، ولكن أيًا من ذلك لم يكن موجودًا عند سقراط، لقد استمر سقراط في هدوئه المعهود، لا تزحزحه المواقف الشداد، ولا تعبت به أيدي الطغاة، ولا تؤثر فيه عقول البلهاء، ظل منخرطًا في الحياة يُعلم الناس ويمتحن الأعداء، وظل يُدلي بنصحه للجميع حتى لحظة خروج روحه. (36)

3- رفض الهروب من السجن: بعد أن حُكم على سقراط بالموت، كان عليه أن ينتظر في سجنه طيلة الشهر الحرام، الذي حرم فيه القتل أو الحرب، ولما اقترب الزمن من الانقضاء، إذا باقريطون، صديق سقراط، يأتي إليه في السجن باكرًا ليخبره بأن السفينة قد أقلعت من صونيوم، وهذا يعني دنو الأجل، لذلك جاء أقريطون ليحمل سقراط على الهرب من السجن مهيبًا له الأسباب كلها، فواجب سقراط أن يفكر في أبنائه وفي نفسه وفي العدالة الحقيقية، فقد ظلم، وألا يعطي فرصة لأعدائه كي يقضوا على مسيرة كفاحه ومستقبل أبنائه، كذلك فإن موقف أصدقائه سيكون عارًا أمام الناس، وإذ سيُتهمون بالبخل وبعدم الوقوف بجوار صاحبهم، لذلك حاول أقريطون بكل السبل إقناع سقراط قائلاً إياه "سيزعم من لا يعرفك ولا يعرفني من الناس أنني كُنْتُ أستطيع [أن أنجيك] لو أنني رغبت في بذل المال، ولكني لم أعبأ بك أفيمكن أن يكون بعد هذا العار عار، أن يقال إنني أثرتُ المال على حياة صديق."

إن الطريق مُمهّد أمام سقراط لو قبل هذا العرض العادل، فأقريطون كفيل بتذليل كافة الصعوبات، إذ إن رشوة الحراس كفيلة بإتمام المهمة، وإن أصدقاءه في تساليا يرغبون أن يخدموا أقريطون أو أيًا من أصدقائه. إن أقريطون يبذل ماله فداءً لسقراط، ثم إنه مُقتنع تمام الاقتناع ببراءته، كما أن الفرار ليس أمرًا عسيرًا، لكن سقراط قبل الرفض أو القبول يعرض الأمر برُمته على قانون الواجب، ليرى أيًا من القرارين واجبًا فيتحذه، هل الفرار من أجل حياة منقضية بعد حين قصير، أم الرضوخ للقضاء الظالم في هذه المحنة صيانةً لمبادئه التي طالما أجلها وقدسها، وهل ينبذ سقراط في لحظة واحدة كل القيم والمبادئ التي كان يُعلمها طيلة عمره، وقد نيف على السبعين، أم سيظل مخلصًا لبلاده وقوانينها؟

³⁵- Ibid, p. 181

³⁶- valastos, op. cit, p. 117

لم يضع سقراط في حسبانته أي اعتبارات من أولاد وضياع أخلاق وسوء حديث لأصحابه، بل وضع في حسبانته شيئاً واحداً فقط، هو القانون، لذلك يقول لصاحبه: "هب أن جاءت إليّ القوانين والحكومة تساءلني، حدثنا يا سقراط ماذا أنت فاعل؟ أتريد بفعلةً منك أن تهز كيانتنا، هل تتصور دولة ليس لأحكام قانونها قوة، ولا تجد من الأفراد إلا نبذاً واطراحاً، أن تقوم قائمتها فلا تتدك من أساسها، إنّ قانون الدولة لا بد وأن يطاع حتى ولو حكم بالظلم،⁽³⁷⁾ حتى ولو كان القائمون على القانون طغاة،^(*) إن القوانين سوف تسأل سقراط لو أراد الخروج عليها قائلةً له "أفكان ذلك ما قطعته معنا من عهد، أم كان لزاماً عليك أن [تتصاع] لما حكمت به الدولة."⁽³⁸⁾

ويرى سقراط أن الإنسان يجب عليه ألا يرد الشر بالشر، ولا يأخذ بالثأر فيقول: "إذن لا ينبغي لنا أن نأخذ بالثأر، ولا أن نرد الشر بالشر لأحد ما كائنًا ما كان الشر الذي ابتلانا به."⁽³⁹⁾ ستهاجم القوانين سقراط لو أنه حاول هدمها، سوف تقول له "إنك يا سقراط ناقض للمواثيق والعهود التي أخذتها معنا على نفسك اختياراً" بل إن رؤيته أبعد من ذلك، إذ إن أصدقاءه سوف يشردون في المنفى وتسلب منهم أموالهم لو أنه عصى القانون، فيقول على لسان القوانين الناصحة "إنك إن اعتديت أو أخطأت على هذا الوجه، فالأرجح أن يُشرد أصدقاؤك وأن يُسلبوا حق انتسابهم للوطن، وأن يفقدوا أملاكهم." هذا فضلاً عن ضياع هيبة وسمعة سقراط ذاته باعتباره هادماً للقوانين". أما عن نفسك أنت، فلو تسلك إلى إحدى المدن المجاورة، إلى طيبة أو ميغارا مثلاً، وهما مدينتان تسيطر عليهما حكومة حازمة، فستدخلهما عدواً يا سقراط وستنصبك حكوماتهما العدا، وسيُنظر إليك أبناؤهما الوطنيون بعين ملؤها الشر لأنك هادم للقوانين، وسيقر في عقول القضاة أنهم كانوا في إدانتهم لك عدواً."⁽⁴⁰⁾

ليس سقراط خائفاً من الموت أكثر من خوفه من هدم القوانين، إنه يعلم علم اليقين أنه لا بد له من الموت، لذلك قال لأقريطون "إن الإنسان إذا عمّر ما عمّرت فلا ينبغي له أن يجزع من شبح الموت.⁽⁴¹⁾ وكيف ينبذ سقراط قوانين بلده التي نعم بخيراتها ورعت أبنائه، أيجوز مقابلة هذا الإحسان من الدولة بالإساءة إلى قوانينها. فلا بد من أن ينصاع المواطن الصالح لأحكام القانون حتى ولو كان قانوناً ظالماً، فالوفاء والإخلاص للدولة من

³⁷- أفلاطون، محاوراة أقريطون، ضمن محاورات الدفاع، تر: زكي نجيب محمود، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1966، ص 120

*- يقول سارتون إن محاوراة أقريطون هي أفضل وأروع دفاع عن القوانين عرفه التاريخ، جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة ليف من العلماء، بإشراف إبراهيم مذكور، القاهرة، دار المعارف، د. ت، ج2، ص 76

³⁸- أفلاطون، محاوراة أقريطون، ص 132، وكذلك النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، ج2، ص 119

³⁹- المصدر نفسه، ص 130

⁴⁰- أفلاطون، محاوراة أقريطون، ص 132، وكذلك النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، ج2، ص 137

⁴¹- أفلاطون، محاوراة أقريطون، ص 118

مبادئ المواطن العادل "وواجبٌ حتمًا على الإنسان أن [ينصاع] بما يأمره به الوطن سواءً أكان في ساحة الحرب أم في ساحة القانون."

إن سقراط كان يمكنه الهرب، وكان الهروب هو عين العدل بالنسبة لموقفه لأنه ظلم ظلمًا بينًا، لكنه آثر الخضوع لقوانين البلاد، أثر أن يرحل إلى العالم الآخر وهو ثابت على مبادئه غير متزحزح عنها قيد أنمله، إنه لا يفكر قطعياً في الأبناء والحياة وسوء الأحداث لأصحابه، بل كان يفكر في العدل، والعدل هو طاعة القانون مهما كان حكمه وأمره، فإذا كان القانون قد ظلمه في الدنيا، فإنه سيلحق بالعدالة في العالم الآخر.

لا يمكن أن يفسر هذا الموقف السقراطي إلا في ضوء ولائه للدولة اليونانية وخوفه على سمعتها وصيانتها لقوانينها أيًا كانت الظروف، وذلك حتى يعطي القدوة للجميع للحفاظ على سلامة القوانين، كذلك يعد هذا الموقف مقاومًا في المقام الأول لطائفة السوفسطائيين الذين هدموا القوانين، وقالوا بنسبيتها وعدم وجوب طاعتها، وشككوا في صحة نسبتها للآلهة، فجاء سقراط وأعاد الأمور لنصابها مرة أخرى.

وهكذا رفض سقراط الإخلال بالمبادئ الأخلاقية تحت وطأة الضرورات السياسية، مما يؤكد أن فلسفة الأخلاق لا تنفصل عن السياسة أبدًا، عند فلاسفة اليونان بصفة عامة، وسقراط بصفة خاصة، وذلك لأن القدر كتب له أن يطبق فلسفته النظرية في حياته العملية، يقول توينبي "لقد أبى سقراط أن يروغ من حكم الإعدام أو يتحاشى تنفيذه بالفرار من السجن ومغادرة البلاد ولم يكن هدف سقراط على خلاف مرمى ارخيلوخوس هو النجاة بحياته، بل لقد أصر على فقدانها، كما لقن أثينا في إجباره إياها على أن تختار أحد أمرين، إما احترام ضميره، وإما إزهاق روحه، هزيمة أدبيه أشد بلاءً من الهزيمة التي مُنيت بها على يد إسبرطة."⁽⁴²⁾

رابعاً: مصير أثينا

يبقى السؤال الآن: ما هو مصير أثينا بعد إعدام العقل؟ وما الذي كان يجدر بسقراط؟ وهل يقضي هذا الإعدام على العقل إلى الأبد؟ أم أنه بمثابة بث الروح من جديد لسيادة حقيقية للعقل تتمثل في أفلاطون وأرسطو؟ يقول بيير: "لم يكن يجدر بسقراط أثينا وأي سقراط إلا أن يتقلد أمور الحكم، وأن يوكل إليهم كل شيء، ولو قدر لتلك العقول أن تقود الأمم لما كان هناك ثمة ظلم أو مظلمة ولتخلص الجنس البشري من معاناته إلى الأبد."⁽⁴³⁾

⁴²- أرنولد توينبي، تاريخ الحضارة الهلينية، تر: رمزي جرجس، مراجعة: محمد صقر خفاجة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963، ص 138

⁴³- Biere(G.G): -Socrate, methun, co, ltd, London, 1993, p. 19

لقد أعطى إعدام سقراط القوه المطلقة للفكر، ومنحه السيادة في حرية التعبير والوجود، يقول ديورانت: "لقد أعلن أول شهيد للفلسفة حقوق الإنسان وضرورة حرية الأفكار، ورفض أن يطلب الرحمة من الجماهير التي احتقرها دائماً، لقد كانت لديها السلطة لتعفو عنه، ولكنه رفض باحتقار أن يناشدها الرحمة."⁽⁴⁴⁾

ذاك هو سقراط الحقيقي، سقراط الذي لم يزحزحه حكم عن مبدأ، فهل يمكننا القول بأنه بطل؟ يقول وولف: "إنه هو بطل خارق، جمع إلى صفات المحارب صفات المقاوم، ولكن هل سبق أن رأينا مقاومين يرفضون أي التزام ما لم يجبروا على ذلك؟ وهل تعرف وطنيين يُسيئون إلى أسس الوحدة الوطنية في زمن الحرب؟ وهل نعرف أبطالاً يهربون من المجد والحياة والسياسة ويدعون أصدقائهم إلى الاقتداء بهم؟"⁽⁴⁵⁾ فماذا يجدر برجل مثل هذا؟ لا أراى أجد تعبيراً أفضل مما قاله صاحب القضية ذاته أمام هيئة المحكمة، "فماذا يحسن برجل فقير أحسن إليكم الصنع ويرغب في الفراغ ليتمكن من تعليمكم سوى أن يظل ابداً في مجلس الدولة، وأنه أيها الأثينيون للأجدر بهذا الجزاء ممن كوفئ في أولمبياد سباق الخيل أو سباق العجلات، لأنني فقير محتاج وذاك غني عنده ما يسد منه العوز، على أنه لا يعطيكم سوى سعادة ظاهريه، أما أنا فأدلكم على الحقيقة، فإذا كان لي أن أقرر عقوبة عادلة ما قلت بغير البقاء في مجلس الدولة جزاءً أوفى."⁽⁴⁶⁾

نعم هذا هو الجزاء الذي يستحقه سقراط، بل إنه اختار جزاءً متواضعاً، أما الجزاء العادل فهو أن يُنصب حاكماً لأثينا أو على الأقل وزيراً لتعليمها.⁽⁴⁷⁾ أما مصير أثينا فقد صنعت لها روح سقراط مجدداً لم تستطع إسبرطة بجيوشها وقوتها العسكرية صنعه، وسترتبط شهرة أثينا أبد الدهر بروح فيلسوفها الأعظم سقراط.

وأنا مؤمن أشد الإيمان بأن موت سقراط يُعد اغتيالاً للعقل في مهبط العقل، وانكسافاً للنور في بلد النور،⁽⁴⁸⁾ لدرجة جعلت فلسفته تغدو وتروح في ميادين البشر حتى هذا الحين، بل ستبقى إلى قيام الساعة.⁽⁴⁹⁾

44- ديورانت، قصه الفلسفة، تر: فتح الله المشعشع، بيروت، منشورات مكتبة المعارف، ط4، 1979، ص 15

45- وولف، مرجع سابق، ص 21

46- أفلاطون، محاوره الدفاع، ص 102

47- M.C tiche, op. cit, p. 112

48- محمد عبد الرحمن مرجبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، بيروت، منشورات عويدات، ط3، 1993، ص 111

49- عبد الرحمن بدوي، أفلاطون، الكويت، وكالة المطبوعات، 1979، ص 15

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر

- المصادر العربية:

- (1) أفلاطون، **محاورة الدفاع**، تر: زكي نجيب محمود، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1966
- (2)، "محاورة أفريطون" ضمن: **محاورات الدفاع**، تر: زكي نجيب محمود، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1966
- (3)، **محاورة الجمهورية**، تر: فؤاد ذكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985
- (4)، **محاورة فيدون**، تر: عزت قرني، القاهرة، مكتبة الحرية الحديثة، 1976

- المصادر الأجنبية:

- 5) Laertius (D): **Lives of Eminent Philosophers**, trans. By: R.D Hicks, Vol II, The Loeb Classical Library Willian Heinmann., LTD, London, 1980.
- 6) Xenophon:-**Memorabilia of Socrates**, trans by:- R.J.S. Watson& in Socrate , discourses. J.M.Dent of sonltd London, 1951.

ثانياً: المراجع

- المراجع العربية:

- (1) أبو ريان، محمد علي، **تاريخ الفكر الفلسفي، من طاليس إلى أفلاطون**، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط5، 1973
- (2) بدوي، عبد الرحمن، **أفلاطون**، الكويت، وكالة المطبوعات، 1979
- (3) توينبي، أرنولد، **تاريخ الحضارة الهلينية**، تر: رمزي جرجس، مراجعة: محمد صقر خفاجة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963
- (4) ديورانت، **قصة الفلسفة**، تر: فتح الله المشعشع، بيروت، منشورات مكتبة المعارف، ط4، 1979
- (5) مرحبا، محمد عبد الرحمن، **من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية**، بيروت، منشورات عويدات، ط3، 1993م.
- (6) وولف، فرنسيس، **سقراط**، تر: منصور القاضي، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، 1993

- المراجع الأجنبية:

- 7) Al biere (B.H): - **the end of Socrate**, Methuen Co. Lid.london,1981.
- 8) Biere (G.G): - **Socrate**, methun, co, ltd, London, 1993.
- 9) MC tic he (K): - ,,Socrates on desire for the good and the involuntariness of wrong doing ,, an essay on the philosophy of Socrates, ed by: H.H.benson & oxford university press network, 1929.

10) Stone (I.F): - **the trial of socrate**, U,S,A. 1993.

11) Vlastos (G) "- **Socrates (Ironic and moral philosopher)**, Cambridge university press & new York, 1992,

P 12) Wiggins (D):_ **the philosophy of greek** , princeton University press, new tersey, 1959.

12) Zeller (E):-**Outline of the history of greek philosophy** , trans by: - L.R.plamet, i3 ed , pover
pupbications inc, New York, 1980.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com